مجلة حوليات التراث
Revue Annales du Patrimoine
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

اللفظ والمعنى من وجهة نظر الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني دراسة موازنة

Pronunciation and meaning according to Al-Murtada and Al-Jurjani A balanced study

كبرى بيگي
جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
kobrabaygi@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/2 - تاريخ القبول: 2022/2/11

22
2022

الإحالة إلى المقال:
* كبرى بيگي: اللفظ والمعنى من وجهة نظر الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني، دراسة موازنة، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الثاني والعشرون، سبتمبر 2022، ص 81-96.

BY-NC-ND

http://annales.univ-mosta.dz

***

مجلة حوليات التراث، العدد 22، 2022، ص 81 - 96
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

اللفظ والمعنى من وجهة نظر الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني دراسة موازنة

كبرى بيگي
بإشراف د. شهريار همتي ود. حامد پورحشمتي
جامعة رازي، كرمانشاه، إيران

الملخص:

لقد حظي اللفظ والمعنى باهتمام النقاد الأدبيين وكانت لكل منهم مواقف وآراء مختلفة حول هذا الموضوع. إنّ البعض قدّم اللفظ على المعنى والبعض الآخر قدّم المعنى على اللفظ، واعتبر البعض الألفاظ متفوقة واعتبر الآخر المعاني هكذا وذهبت فئة أخرى منهم إلى أن كلاهما أساس البلاغة، وراودتهم الشكوك بهذا الصدد حول اعتبار الأكثر أهمية بين اللفظ والمعنى. إنّ الشريف المرتضى بوصفه أحد نقّاد القرن الرابع عبّر عن وجهات نظر مختلفة حول الكلمة والمعنى في كتبه ويرى تأثير استخدام الكلمة في العبارة أكثر من المعنى، وفي المقابل يجعل العبارة قائمة على المعنى وليس على اللفظ والكلمة. لقد استمرت ازدواجية الكلمة والمعنى، أو الصورة والمضمون، في الهيمنة على أذهان النقاد حتى استطاعت الحجج القوية والدقيقة والشاملة لعبد القاهر الجرجاني درء هذه الازدواجية وإرساء مفهوم النظم باعتباره ركيزة صالحة وحيدة. تحاول هذه الدراسة دراسة آراء عبد القاهر الجرجاني والشريف المرتضى في مجال الكلمة والمعنى معتمدة على المنهج الوصفي - التحليلي وتقوم بالموازنة في التعبير عن آرائهما على هذا الصعيد.

الكلمات الدالة:

اللفظ، المعنى، الشريف المرتضى، عبد القاهر الجرجاني، الموازنة.

Pronunciation and meaning according to Al-Murtada and Al-Jurjani A balanced study

Kobra Baygi
Under the supervision of Dr Shahriar Hemati and Dr Hamed Poorheshmati
Razi University, Kermanshah, Iran

Abstract:

The term and meaning have received the attention of literary critics and

تاريخ الاستلام: 2021/12/2 - تاريخ القبول: 2022/2/11
kobrabaygi@yahoo.com
© جامعة مستغانم، الجزائر 2022

each of them had different positions and opinions on this subject. Some people gave the word the meaning and some others gave the meaning to the word, and some considered the words superior and the other consider meanings as such, Another group of them held that both are the basis of rhetoric And they had doubts in this regard about the most important consideration between the word and the meaning. Al-Sharif al-Mortada, as one of the critics of the fourth century, expressed different views about the word and the meaning in his books. He sees the effect of using the word in the phrase more than the meaning, On the other hand, he makes the phrase based on the meaning and not on the utterance and the word. The duality of word and meaning or image and content has continued to dominate the minds of critics. Until the strong, accurate and comprehensive arguments of Abd al-Qahir al-Jurjani were able to avert this duplicity and establishing the concept of systems as a valid and solid foundation. This study attempts to study the opinions of Abdul-Qaher al-Jurjani and Al-Sharif al-Murtada in the field of word and meaning, based on the descriptive-analytical method and it balance in expressing their opinions on this level.

Keywords:

pronunciation, meaning, Al-Murtada, Al-Jurjani, balance.

المقدمة:

يتكون الكلام من الألفاظ ومعانيها ونظمها وترتيبها. ويتمّ الكشف عن محتوى العلوم المختلفة ومنزلتها من خلال الكلام. ويكمن الفرق بين الإنسان والحيوان في القدرة على النطق والكلام. لولا الكلام، لما وجدت العلوم المختلفة ولما تمكّن الإنسان من تحديد موقفهم والتعبير عنه، لأنّه من خلال التحدث يتم الكشف عن مستوى الإدراك والفهم البشري. يمكن للمرء أن يمدح أو يلوم شخصاً ما من خلال الكلام ويصف خصائص الأشخاص والأشياء المختلفة. إنّ المعنى هو شعور الشاعر نفسه والذي يجب أن ينقله للجمهور في صورة كلمات ومفردات جميلة. يجب أن يكون لدى الشاعر كمّ كبير من المفردات في ذهنه حتى يتمكن من اختيار الكلمات الساحرة ذات الطابع الموسيقي الجميل للتعبير عن مشاعره حتى يقبل الجميع قصيدته. ولكي يتمكّن القارئ من فهم النص الأدبي

جيداً وتكوين علاقة وثيقة معه بشكل صحيح، فمن الضروري أن يكون لديه الكثير من المعلومات حول الكلمات.

تعدّ هاجسة الكلمة والمعنى من الموضوعات المهمة للنقد الأدبي، ويعود تاريخها إلى القرن الثالث الهجري. عندما لم يتمكّن المسلمون من إنشاء سورة مثل سور القرآن، شرع علماء المسلمين في التنقيب عن أسرارها. كان للمفكرين وجهات نظر مختلفة حول إعجاز القرآن، فالبعض يعتقد أن إعجاز القرآن يرجع إلى قيمه الفنية، واعتبر آخرون أن إعجاز القرآن يكمن في معانيه ومفاهيمه القيمة، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أصبح هذا الموضوع موضوعاً نقدياً غطى القرآن والنصوص الأدبية الأخرى. نريد في هذه الدراسة أن نفحص آراء اثنين من كبار النقاد البارزين: الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني، في مجال الكلمة والمعنى.

تحسّباً لما سبق، سنقوم أولاً بدراسة آراء النقاد قبل الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني حول الكلمة والمعنى، ثم سنبيّن موقف هذين الناقدين البارزين في هذا الصدد. أمّا فيما يرتبط بخلفية البحث فلا يوجد كتاب أو مقال مستقل حول وجهة نظر الشريف المرتضى في مجال الكلمة والمعنى، ولم يتم سوى الإشارة بشكل موجز لهذه القضية في الكتب التي تطرقت لدراسة سيرته الذاتية وأدبه، بما في ذلك الكتب التالية: "أدب المرتضى من سيرته وآثاره" تأليف عبد الرزاق محيي الدين، و"الشريف المرتضى، حياته، ثقافته، أدبه ونقده" لأحمد محمد معتوق، و"المباحث النقدية في أمالي المرتضى" لمحمود وليد خالص. وكتبت عدّة مقالات في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، منها: "نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ودورها في إثراء اللغة وكشف المعنى" لنور الهدى حسني، و"نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني" لرمضان علاء الدين.

1 - اللفظ والمعنى في ساحة النقد:

قبل دراسة آراء الشريف المرتضى وعبد القاهر الجرجاني في اللفظ والمعنى، لا بد من الرجوع إلى آراء كبار النقاد الآخرين في هذا المجال. يرى الجاحظ أن

المعاني متاحة للجميع وأن الكلمات وحدها لا تكفي. وذلك حتى تصبح الميزة بلاغية، بل يحتاج المعنى إلى لفظ بليغ وأسلوب قوي ودقيق بكل مقوماته ليؤثّر على المستمعين. يقول في هذا الصدد: "والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والحضري والبدوي، والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك. فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"[1]. يدلّ هذا التعريف على أنّ الجاحظ اعتبر الصورة والخيال جزءاً من التركيب واللفظ. يقوض هذا التعريف فكرة تقدّم الألفاظ على المعاني، ويظهر أنّ للأسلوب معنى أوسع من ترتيب الألفاظ، وكأنه شعر أن المعاني وحدها لا تستطيع أن تخلق الكلام البليغ.

رأى ابن قتيبة التساوي في قضية اللفظ والمعنى، فهو يعتبر قيمة الألفاظ والمعاني متساوية، ويذكر صفة الحسن والقبح لكل منهما: تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه... وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى... وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه... وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه[2]. إنّ هذا القول لابن قتيبة قريب من الصواب، لأن المعنى الحسن يجب أن يعبّر عنه بألفاظ جميلة حتى يكون له أثر طيب.

لقد قدّم أبو هلال العسكري آراء مختلفة في الكلمة والمعنى في كتاب "الصناعتين" ويقول: "البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ"[3]. وفي مكان آخر يعتبر الكلمات أشبه بأعضاء الجسد ومعانيها هي رداء الجسد: "لأنّ المعاني تحلّ من الكلام محلّ الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة"[4]. يمكننا الاستنتاج من العبارتين السابقتين أنّ أبا هلال يعتبر كلاً من اللفظ والمعنى ذا أهمية، وإذا كان كل منهما قبيحاً، فإن العبارة لا يمكن أن تفي برسالتها. إنّ أبا هلال اعتبر الألفاظ مهمة؛ لأنه إذا كانت الألفاظ لطيفة وجميلة، فإنها ستسحر المخاطب؛ لكن إذا عبرنا عن المعنى السامي بكلمات قبيحة مذمومة، فلا أحد يريد

سماعها.

كتب ابن رشيق القيرواني مؤلّف كتاب "العمدة" في موضوع اللفظ والمعنى: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته. فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح"[5]. إنّ الكلمة عند ابن رشيق مثل الجسد ومعناها هو الروح، وعلاقة الكلمة بالمعنى كعلاقة الروح بالجسد تضعف بضعفه وتقوى بقوته. فإذا كان المعنى صحيحاً وبعض الألفاظ مذمومة ومختلة فهذا عيب في الشعر يؤدي لقبحه، مثل أن يكون بعض الأعضاء والأجساد مصاباً بأمراض كالشلل والعرج والعمى دون أن يفقد الجسد روحه. وبالمثل، إذا كان المعنى ضعيفاً، تضعف الكلمة بسبب ضعف المعنى هذا، مثل جسم الإنسان، الذي يبدو أنه يتمتع بصحة جيدة ولكنه يعاني من مرض نفسي.

والكلمة والمعنى من جسد واحد، وهما شيئان لا ينفصلان، ولا يجوز التفريق بينهما، أو الالتفات إلى أحدهما بمعزل عن الآخر؛ فلا يمكن إهمال الكلمة والاكتفاء بالانتباه إلى المعنى، والعكس صحيح، فلا يمكن إعطاء الكلمة الأهمية والتغاضي عن المعنى. لذلك، كما يقول ابن رشيق، فإن الارتباط بين الكلمة والمعنى يشبه الصلة بين الجسد والروح. فكما أن الروح والجسد يجب أن يكونا سليمين وجميلين حتى يظهر الإنسان في حالة جيدة، فإن الكلمة والمعنى يجب أن يبتعدا عن القبح، حتى تبدو العبارة جميلة.

2 - نبذة عن عبد القاهر الجرجاني والشريف المرتضى:

ولد علي بن حسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر في شهر رجب سنة 355 هجرية في مدينة بغداد لأسرة ينتهي نسبها إلى الإمام موسى بن جعفر من خلال ست وساطات[6]. كان إمام أئمة العراق،

فيلجأ إليه علماؤها، ويتعلّم منه كبارها[7]. ظهرت منذ الطفولة آثار النبوغ فيه[8]. من ألقابه علم الهدى وذو المجدين[9].

كان أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، واضع أصول البلاغة من أئمة اللغة[10]. لا يعلم أحد سنة ولادته، لأنه لا تتحدّث المصادر عنها وأغلبُ الظنّ أنه وُلد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان[11]. عاش بجرجان ولم يفارقها حتى توفي سنة 471 من الهجرة[12]. أقبل على طلب العلم منذ صغره. من أهمّ أساتذته أبو الحسين الفارسي النحوي ومن تلاميذه ابن الشجري[13]. تعلّم عبد القاهر علوماً كثيرة وكتب عدّة كتب، من أهمّها: "أسرار البلاغة"، "دلائل الإعجاز"، "الجمل" في النحو و"المغني" في شرح الإيضاح[14].

3 - اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد أثار عبد القاهر بعض المباحث حول اللفظ والمعنى، وسنذكرها أولاً لنستكشف من خلال دراستها فيما إذا كان يعتبر الكلمة أكثر أهمية أم المعنى. إنه يعتقد أن الكلمة وحدها ليس لها قيمة أو مكانة، فالكلمات المختلفة المستخدمة لكلمة أسد ليس لها أرجحية بالنسبة لبعضها البعض من حيث الدلالة، ولا تظهر قيمتها إلا عندما تندمج في سياق الكلام[15]، ويضيف عبد القاهر أننا إذا أخللنا بترتيب القصيدة الجميلة وغيرنا ترتيب كلماتها، فسيضيع جمالها. على سبيل المثال، إذا لم نستخدم مصراع "قِفا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ ومنزل" بهذا الترتيب الخاص الذي قاله الشاعر، وقلنا بدلاً من ذلك: منزل قفا ذكرى من نبك حبيب، فسوف نفقد جمال القصيدة تماماً[16].

يذهب عبد القاهر إلى أنّ الكلمات وحدها ليست لطيفة وجميلة، ويجب أن نهتم بها مع الكلمات الأخرى من أجل أن نجعلها تبدو مثيرة للاهتمام تماماً كما تكون اللؤلؤة جميلة عندما توضع في القلادة فقط مع اللآلئ الأخرى وتعلّق على عنق حسناء[17]، وينتقد عبد القاهر غيره من النقاد الذين يرجحون كلاماً على آخر فيقولون إن هذا الكلام يتفوق على غيره بسبب جزالة الكلمات، أو يقولون أحياناً إن هذه القصيدة ذات كلمات معقدة وغامضة، فلا ينبغي للمرء أن ينتبه

فقط لمظهر العبارة، بل يجب عليه أن يلاحظ الألفاظ ضمن الجملة، لأنه لا يتم تحديد خصائص الكلمة إلا من خلال المكان الذي توجد فيه الكلمة.

الألفاظ عند عبد القاهر تابعة للمعاني: "إنَّ الألفاظَ إذا كانتْ أوعيةً للمعاني فإنَّها لا محالةَ تتبعُ المعاني في مواقعها"[18]. نظراً لاستخدام الألفاظ للإشارة إلى المعنى بطريقة يتبادر فيها المعنى إلى الذهن أولاً ثم يختار المتحدث كلمات مختلفة للتعبير عنه، فلا يمكن إنكار أن الألفاظ تابعة للمعاني. نستنتج مما قيل أن عبد القاهر لا يعتبر الألفاظ منفصلة كواحد من العوامل التي تجعل النص جميلاً.

يؤكد عبد القاهر على أهمية المعنى عندما يتحدّث عن الجناس والشروط التي يكون فيها صالحاً، ويكون من الواضح عنده أن الجناس بين كلمتين جيد عندما يكون معناهما جميلاً[19]. يعتقد الجرجاني أن فضيلة الجناس تتحقق فقط بمساعدة المعنى، ويضيف أن من يصر على أن الكلمة أرجح من المعنى هو مثل الشخص الذي يخرج شيئاً من موقعه الأصلي[20]. من ناحية أخرى، يعتبر البحث في المعنى الحرفي للكلمات خارجاً عن نطاق الفصاحة والبلاغة. ليسَ لنا إذا نحنُ تكلَّمنا في البلاغةِ والفصاحةِ مع معاني الكلِمِ المُفردةِ شُغلٌ ولا هيَ منّا بسبيل وإنَّما نعمدُ إلى الأحكامِ التي تحدُث بالتأليف والتّركيب[21]. من ثمّ لا شأن له بمعاني الكلمات المفردة ولا علاقة لها، بل يجب الانتباه فقط إلى القواعد التي تظهر مع تركيب الكلمات.

يرى عبد القاهر أنّ عبارة واحدة لا تتفوق على عبارة أخرى إلا إذا كانت هناك ميزة خاصة في معناها لا توجد في غيرها: "لا يكونُ لإحدى العبارتين مزيةٌ على الأُخرى حتى يكونَ لها في المعنى تأثيرٌ لا يكونُ لصاحبتها"[22]. ويشير إلى سمة خاصة لوجود التأكيد أو التقديم والتأخير وعوامل بلاغية أخرى تبرز المعنى وتقويه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبد القاهر لا يقصد بمعاني الألفاظ معانيها المعجمية فقط. في كتاب دلائل الإعجاز، يعارض من يعتبر المعنى أساس الكلام فيقول: "واعلمْ أن الداءَ الدَّويَّ والذي أعيا أمرُه في هذا الباب غلط مَنْ قَدَّم الشعرَ بمعناه وأقلَّ الاحتفالَ باللفظِ فأنتَ تراهُ لا يقدِّم شعراً حتى يكونَ قد

أودِعَ حكمَةً أو أدباً واشتملَ على تشبيهٍ غريبٍ ومعنًى نادرٍ"[23]. يقصد عبد القاهر بالمعاني تلك الناتجة عن ترتيب خاص للألفاظ المختلفة في مواقع خاصة بالنظر إلى قواعد النحو والتي يشير إليها بالنظم. وليس المقصود بالنظم الكلام الموزون، بل نسيج الكلام المطلوب والذي يتجاوز وزن الكلام. إنه يعتبر النظم عاملاً لجمال النص ولطافته. ويقول في تعريف النظم: "ليس النظمُ شيئاً غيرَ توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم"[24].

يقصد عبد القاهر بالنظم أن المتحدّث قادر على التعبير عن كلام يتناسب مع هدفه. من أجل تحقيق ذلك، من الضروري معرفة قواعد النحو. على سبيل المثال، إذا أردنا استخدام كلام مؤكّد، فيجب أن نستخدم أحرف التأكيد أو التقديم والتأخير. وإذا أردنا أن نجعل المعنى يبدو كبيراً وعظيماً، فيجب أن نستخدم النكرة والأشياء الأخرى التي يقال عنها في كتب البلاغة أنها طريقة للتعبير. ويستشهد في بيان أرجحية اللفظ أو النظم بالبيت التالي لابن معتز[25]:

وإنّي على إشْفاقِ عَيْني منَ العِدا لَتَجْمَحُ مِنّي نَظْرَةٌ ثمَّ أُطْرِقُ

وفي شرح سبب جمال هذا البيت، كان القارئ قد يظن أن سبب جمال هذا البيت هو ألفاظه، لكن عندما تنظر عن كثب، نلاحظ أن استخدام الكلمات وفقاً لقواعد النحو - بمعنى النظم - يجعل شعر ابن معتز جميلاً. وما يجعل شعر ابن معتز جميلا هو أنه في بداية القصيدة استخدم "إن" في التعبير عن التأكيد، ثم استخدم اللام في خبرها، مما زاد من تأكيد الكلام، واستخدم النظرة في شكل نكرة وكرر ضمير الياء عدّة مرات.

لا يعتبر عبد القاهر أن سبب جودة القصيدة أعلاه هو معنى الكلمات وحدها، بل هو تركيب الكلمات وفقاً لقواعد النحو. أي أن تركيب الكلمات هو الذي يخلق المعاني. ويؤكد في العديد من المواقف أن الألفاظ ليست مهمة، ولكن المهم هو بناء الكلمات التي تخلق المعاني المختلفة. قدم عبد القاهر معياراً جديداً للعوامل الجمالية للنص الأدبي. في رأيه، يعود امتياز أي عمل أدبي بارز إلى وجود نظم في هذا العمل. ووفقا لرأيه، قواعد النحو التي تربط الألفاظ ببعضها

ثابتة. تتمثل مهمة المتحدث في أنه إذا أراد تقديم خطاب للجمهور، فعليه أن يختار الألفاظ وفقاً لمواقف مختلفة ويضع الألفاظ التي يختارها معاً وفقاً للمواقع التي أخذها في الاعتبار. وللمتحدث الحرية في استخدام العبارات والتركيبات كما يشاء، لكن هذه الحرية تعمل ضمن قواعد اللغة وأنظمتها[26]. وهنا يكتسب النحو قيمته ومكانته ويدخل مجال البلاغة. النحو هو الذي يكشف المعاني المختلفة ويبين أهداف المتحدّث بحيث إنّ الاستعارات والتشبيهات الجميلة أيضاً تتحقّق في تركيب الكلام.

4 - اللفظ والمعنى عند الشريف المرتضى:

يبدو أنّ الشريف المرتضى قد تأثر بالنقاد الذين اعتقدوا أن جوهر الشعر هو الألفاظ، فيقول: "حظ اللفظ في الشعر أقوى مِن حظِ المعنى"[27]. إنّ اللفظ أفضل من المعنى لا تبدو صحيحة؛ لأنّ قيمته لا تكتشف حتى يتم استخدام اللفظ في الجملة. من ناحية أخرى، وكما هو مذكور في علم البلاغة، فإن الكلام يقوم على معاني الأشكال المختلفة. على سبيل المثال، في إحدى العبارات، يوجد تأكيد في عبارة واستعارة أو تشبيه في عبارة أخرى، وكلها أنشئت بمساعدة المعنى. هذا التجاهل لهذا الدور العظيم للمعنى جعل النقاد المؤيدين للألفاظ يفضلونها على المعنى.

وحين يتكلم الشريف المرتضى عن اللفظ لا يقصده وحده، بل يعتبره ضمن الجملة، وقد قال في كتاب طيف الخيال: "مع الاشتراك في المعاني إنّما يقعُ الإحسانُ في حُسنِ النّسجِ وسلامة السّبك، وأن تكون العبارة عن ذلك المعنى ناصعة، وفي القلوب متقلّبة"[28]. لم يعتبر الشريف المرتضى هنا فقط جمال اللفظ سبباً لجمال العبارة، ولكن اهتم أيضاً بجودة الأسلوب وسلامة التركيب.

يتفق معظم المنتقدين المعاصرين للشريف المرتضى أيضاً مع هذا الرأي ويؤمنون بتفوق الألفاظ على المعنى. ويبدو أنّ هذه الأفكار قد دخلت في ذهنه وقبلها بقليل من التردد. يؤمن أحياناً بتفوق اللفظ على المعنى في التعليقات التي كتبها على بعض القصائد، لكنه لم يذهب بعيداً في هذا الصدد. لقد اعتبر علم

الهدى في كثير من الأماكن في كتب الشهاب في الشيب والشباب، طيف الخيال والأمالي أن ملاحة الكلمة ولطافتها وحلاوتها سبب لجمال الشعر وتفوقه[29]. وأحياناً ما يقدم أسباباً لرأيه، فعلى سبيل المثال، في شرح مصراع (واعقر مراحك للطروق الزائر) يقول: "هذا المصراع يتكون من ألفاظ حلوة وأنيقة، لأن الإبل تذبح للضيف، وللشيخوخة عندما تأتي يجب تقديم الطرب والسعادة والحيوية:

قالوا: المَشيبُ! فعِمْ صَباحاً بالنُّهَى واعقر مراحك للطروق الزائر

فمن مليح اللفظ ورشيقه، لأنّ الضيف الزائر إنّما يعقر له الأنعام والشيب إذا زار فإنّما يعقر له الطرب والمراح والأرن والنشاط"[30].

جعل الشريف المرتضى البيت التالي قوياً من حيث الألفاظ والعبارات، وذكر السبب على النحو التالي:

يهوى الشبابُ وإنْ تقادم عهدهُ ويُمَلُّ هذا الشَّيبُ وهْوَ جديدُ

"البيت قوي اللفظ والعبارة، لأنّ من شأن من تتطاول صحبته أن يمل والشباب تستمر محبته مع استمرار صحبته، ومن شأن الجديد أن لا يكون مملولاً والشيب يمل جديداً، فقد انتقضت العادة المألوفة في غير الشباب والشيب بهما وفيهما"[31].

أحياناً ما يصادف القارئ أثناء قراءة تعليقات الشريف المرتضى مواقف يكون فيها رأيه مخالفاً لرأيه الأول ويعتبر المعنى متفوقاً على الكلمة؛ لكنه في هذه المواقف أيضاً راعى الاعتدال ولم يبالغ.

لقد ذكر الشريف المرتضى في طيف الخيال أن الاعتماد لا يكون على الألفاظ، بل على المعاني: "وليس المعوّلُ على الألفاظ، وإنّما المُعوّل على المعاني"[32]. وعندما كان يشرح أبيات الشريف الرضي عن الشيب، اعتبر أن معنى البيت التالي مليح للغاية:

ما أَخلَقَ البُردُ بَدّلَ لي وَجَدّدَا

"معنى البيت الأخير مليح جداً، لأن الاستبدال على العادة إنّما يكون مع

الإخلاق والرثاثة، ولا معنى لإبدال ما لم يخلق وتجديده"[33]، وشرح سبب ذلك في أن التغيير يحدث عادة بعد الشيخوخة، وليس التغيير ذا معنى دون الشيخوخة. يشرح الشريف المرتضى بعض الأبيات للبحتري في وصف الطيف: "وهذه الأبيات الرّائية معانيها أجود مِن ألفاظِها، وتظهرُ فيها بعض كلفة الصنعة، وهي مع ذلك في غاية الحسن"[34]، وهذا يعني أنه فضل المعنى على اللفظ، لأن ما يجعل شعر البحتري أجمل عنده هو معانيه الحسنة، لا الألفاظ المتكلفة.

اعتبر الشريف المرتضى أن للبيت التالي، وهو من تأليفه، معنى لطيفاً وذكر أن سبب ذلك هو:

كيف اهتدى لي في قميص الدّجى مَن كان في الإصباح لا يهتدى؟

"والبيت لطيف المعنى؛ لأن العجب كلّه في اهتداء زائر ليل، وهو لا يهتدي نهاراً"[35]. إنّ البيت حول طيف الخيال. يتساءل الشاعر عن الحبيب الذي زاره في عالم الأحلام ليلاً، لأنه لم يلتفت إلى عاشقه في ضوء النهار ولم يأت لزيارته، فكيف اهتدى الآن للقاء الحبيب في ظلام الليل. كما اعتبر الشريف المرتضى أن معنى المصراع الأول من البيت التالي جيد وقوي:

صبغ الدجى أبعد عن فاحشة ولم يزل صبغ الدجى متهما

"أما الذي أوله "صبغ الدجى أبعد عن فاحشة" فعزيز المعنى، لأنّ النهار نفسه وما يشبه بالنهار من الشيب أبعد من الفواحش والقبائح، أما النهار فإنّه يظهرها ولا يسترها والشيب يعظ ويزجر عن ركوبها، وصاحبه في الأكثر عند الناس منزه عنها. وصبغ الدجى الذي هو الليل نفسه وما يشبه به من الشباب أدنى القبائح، لأنّ الليل يستر القبيح ويخفيه والشباب يدعو إلى اقتراف القبيح"[36]. في كثير من الحالات اعتبر الشريف المرتضى أن معيار جمال القصائد التي ذكرها هو حلاوة المعنى وجماله[37]. لا يمكن اعتبار المعنى لوحده أفضل من الألفاظ. أحياناً نرى عبارتين متشابهتين في المعنى، فنظن أن إحداهما أفضل من الأخرى لجمال الكلمات، لكن إذا نظرنا عن كثب، نرى أنه في إحدى العبارتين قد يكون

هناك شيء ما أضيف إلى المعنى أو ربما تم التعبير عن المعنى في شكل جديد، وهذا هو السبب في أن البيت جميل.

للشريف المرتضى رأي خاص في مجال اللفظ والمعنى ووجهة نظره قريبة من الاعتدال، فهو يعتبر اللفظ والمعنى والانسجام جميعاً من العوامل المهمة في سياق الكلام. وقد ذكر بضعة أبيات شعرية لمروان، واعتبر أن السبب في جاذبيتها هو جودة المعنى واللفظ والانسجام في سياق الكلام: "اجتمع له فيه جودة المعنى واللفظ واطّراد النسج"[38]. قال الشريف المرتضى فيما يتعلق بأبيات للبحتري يذم فيها الشيخوخة: "وهذا والله أبلغ كلام وأحسنه وأحلاه وأسلمه وأجمعه لحسن اللفظ وجودة المعنى"[39]. كما يرفض على سبيل المثال بيتاً من قصيدة مروان بن أبي حفصة لأنها لا تحمل لا ألفاظاً مستعذبة ولا معنى غريباً بعيداً عن الذهن:

طرقتك زائرة، فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

"أما ذكره في أول القصيدة طروق الطيف؛ فإنّه لم يأت فيه بمعنى غريب؛ ولا لفظ مستعذب"[40]. من الواضح أن طيف الحبيب يأتي للزيارة ليلاً، ووصف الحبيب بالجمال والدلال والحياء هو شيء يقوله معظم الشعراء وحتى البشر العاديون، بينما يتوقع للشاعر أن يتجاوز البشر في تعبيره. وهذا هو السبب في أن الشريف المرتضى لا يحب شعره ويقول إنه لم يأت بألفاظ عذبة ولا معنى جديد.

يؤكّد الشريف المرتضى أيضاً على أهمية العناصر الموسيقية في العبارة الشعرية ويعتبرها مرتبطة بالألفاظ، على الرغم من أن العناصر الموسيقية في الواقع مرتبطة بكل من اللفظ والمعنى. ويؤكّد محتوى العديد من تعليقات الشريف المرتضى على أن العبارة الشعرية، بالإضافة إلى كونها كاملة في المعنى والإيجاز والدقة، فيجب أن تكون ممتعة وبعيدة عن التكلف، ويجب أن يكون لها نسيج متناغم وكلمات عذبة وموسيقى جميلة، من أجل أن يكون لها تأثير مباشر على أذن المستمع وتغلغل في أعماق قلبه. الشريف المرتضى يفضل الكلام الذي يتمتع بالفصاحة والبلاغة. في رأيه، يتم تعريف الفصاحة بالمصطلحات التالية: جزالة اللفظ، قوة الشعر، فخامة اللفظ، قوة المعنى وقدرة التعبير. واعتبر البلاغة والسلاسة والصحة

والانسجام وبلاغة الكلمات سمات شعرية تكون ألفاظها ومعانيها واضحة وبعيدة عن التعقيد.

الكلمات المدروسة لا تؤثر بدون ثراء المعنى، ولا فرق بين المعنى واللفظ في العمل الأدبي، فهما كلٌ يتسم بسمات جمالية مختلفة، وإذا نظرنا إليها نظرة سريعة وعابرة، سنجد جمالها في الألفاظ العذبة، ولكن إذا توخينا الدقة فيها، فسوف نرى أن جمالها يعتمد أيضاً على محتوى هذا العمل وطريقة ترتيب الكلمات.

الخاتمة:

لا يقبل عبد القاهر الجرجاني أصالة الكلمة، بل يرى أن الألفاظ تابعة للمعاني، ولا بد من الإشارة إلى أن المعنى الحرفي للألفاظ المفردة ليس له قيمة كبيرة من وجهة نظره، بل المهم هو النظم وكيفية ترتيب المعاني في الجملة حسب قواعد النحو. أدخل عبد القاهر النحو في مجال البلاغة، واعتقد أن النحو - أي طريقة تركيب الجملة - يظهر معانٍ مختلفة. في المقابل يعمد الشريف المرتضى إلى الألفاظ في الكلام الفصيح، سواءً في النظم أو النثر، أكثر من اهتمامه بالمعاني، ولكن يكون له أحياناً رأي مخالف لرأيه الأول فيفضل المعنى على اللفظ. في هذه المواقف يراعي جانب الاعتدال ويتجنب المبالغة. للشريف المرتضى رأي قريب من الاعتدال، فهو يعتبر اللفظ والمعنى وتركيب الجملة جميعها عوامل مهمة، وقال إنه بالرغم من القواسم المشتركة في المعاني، فلا شك في أن جمال الكلام يكمن في حسن النظم وسلامة الأسلوب. إن نظرة عبد القاهر للفظ والمعنى نظرة كاملة وشاملة. لأن اللفظ ليس له قيمة ومصداقية ما دام غير مستخدم في الجملة، وبناءً على تركيب المعنى حسب علم النحو، تظهر الأشكال مختلفة من الكلام.

الهوامش:

1 - الجاحظ: الحيوان، دار الجيل، بيروت 1416هـ، المجلّد 3 و6، ص 132-131.

2 - ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة 1423هـ، م1، ص 69-65.

3 - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، المكتبة العصرية، بيروت 1419هـ، ص 12.

4 - المصدر نفسه، ص 69.

5 - ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، بيروت 1401هـ، ج1، ص 124.
6 - شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة 1427هـ، ج13، ص 231.
7 - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتّاب، ط1، تونس 1979م، ج8، ص 465.
8 - عبد الرحمن ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن 1357هـ، ج7، ص 118.
9 - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: المصدر السابق، ج8، ص 465.
10 - خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، بيروت 2002م، ج4، ص 48.
11 - أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني حياته وآثاره، مجلّة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع15، 1972م، ص 8.
12 - عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت)، ص 28.
13 - أحمد مطلوب: المرجع السابق، ص 11.
14 - خير الدين الزركلي: المصدر السابق، ج4، ص 49.
15 - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت 1995م، ص 52.
16 - المصدر نفسه، ص 14.
17 - المصدر نفسه، ص 27.
18 - المصدر نفسه، ص 58.
19 - المصدر نفسه، ص 7.
20 - المصدر نفسه، ص 8.
21 - المصدر نفسه، ص 70.
22 - المصدر نفسه، ص 200.
23 - المصدر نفسه، ص 184.
24 - المصدر نفسه، ص 382.
25 - المصدر نفسه، ص 87.
26 - مهين حاجى زاده: النحو واللغويات العربية، مطبوعات المركز الأكاديمي للتربية والثقافة

والأبحاث، ط1، طهران 2009م، ص 392.

27 - الشريف المرتضى: الشهاب في الشيب والشباب، مجمع الذخائر الإسلامية، 1425هـ، ص 79.

28 - المصدر نفسه، ص 210.

29 - المصدر نفسه، ص 62-77.

30 - المصدر نفسه، ص 52-53.

31 - المصدر نفسه، ص 97-98.

32 - المصدر نفسه، ص 148.

33 - المصدر نفسه، ص 59-60.

34 - أحمد محمد المعتوق: الشريف المرتضى حياته ثقافته أدبه ونقده، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008م، ص 231.

35 - الشريف المرتضى: المصدر السابق، ص 172-173.

36 - المصدر نفسه، ص 113-114.

37 - المصدر نفسه، ص 50-51.

38 - المصدر نفسه، ص 186.

39 - المصدر نفسه، ص 19.

40 - المصدر نفسه، ص 509.

References:

1 - ʻAtiq, ʻAbd al-ʻAzīz: ʻIlm al-badīʻ, Dār al-Nahḍa al-ʻArabiyya, Beirut (n.d.).

2 - Al-ʻAskarī, Abū Hilāl: Kitāb as-ṣināʻatayn, Al-Maktaba al-ʻAṣriyya, Beirut 1419H.

3 - Al-Dhahabī, Muḥammad: Siyyar aʻlām an-nubalā', Dār al-Ḥadīth, Cairo 1427H.

4 - Al-Jāḥiẓ: Al-ḥayawān, Dār al-Jīl, Beirut 1416H.

5 - Al-Jurjānī, ʻAbd al-Qāhir: Asrār al-balāgha fī ʻilm al-bayān, Dār al-Kutub al-ʻIlmiyya, Beirut 1995.

6 - Al-Maʻtūq, Aḥmad Muḥammad: Al-Sharīf al-Murtaḍā ḥayātuhu thaqāfatuhu adabuhu wa naqduhu, Al-Mu'assasa ak-ʻArabiyya li al-Dirāsāt wa al-Nashr, 1st ed., Beirut 2008.

7 - Al-Murtaḍā, al-Sharīf: Ash-shihāb fī ash-shayb wa ash-shabāb, Majmaʻ al-Dhakhā'ir al-Islāmiyya, Tehran 1425H.

8 - Al-Ziriklī, Khayr al-Dīn: Al-aʻlām, Dār al-ʻIlm li al-Malāyīn, 15th ed., Beirut 2002.
9 - Ibn al-Jawzī, Abd al-Raḥmān: Al-muntaẓim fī tārīkh al-mulūk wa al-umam, Dā'irat al-Maʻārif al-ʻUthmāniyya, Haydar Abad 1357H.
10 - Ibn Bassām al-Shantirīnī: Adh-dhakhīra fī maḥāsin ahl al-Jazīra, Al-Dār al-ʻArabiyya li al-Kitāb, 1st ed., Tunis 1979.
11 - Ibn Qutayba: Ash-shiʻr wa ash-shuʻarā', Dār al-Ḥadīth, Cairo 1423H.
12 - Ibn Rashīq al-Qayrawānī: Al-ʻumdah fī maḥāsin ash-shiʻr wa adābih wa naqdih, Dār al-Jīl, Beirut 1401H.
13 - Maṭlūb, Aḥmad: ʻAbd al-Qāhir al-Jurjānī ḥayātuhu wa āthāruhu, Majallat Kulliyyat al-Ādāb, University of Baghdad, Issue 15, 1972.
14 - Zadeh, Muhīn Ḥājjī: An-naḥw wa al-lughawiyyāt al-ʻarabiyya, Maṭbūʻāt al-Markaz al-Akādīmī, 1st ed., Tehran 2009.